وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

الحمد لله الذي أنار الوجود بالمولد العلي لسيدنا محمد المحمود، وجعل إرساله رحمة للعالمين فوجب علينا شكره على هذا الكرم والجود، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له أنعم على الوجود بإرسال خير مولود، وأشهد أن سيدنا محمد صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، اللهم صلِّ على سيدنا محمد بقدر حبك فيه ، وزدنا يامولانا حبًّا فيه، وبعد،،،

فلقد أراد الله أن يمتنَّ على العالم برجل يمسح آلام الناس، ويخفف أحزانهم، ويَرقُّ لخطاياهم، ويستميت في هدايتهم، ويأخذ بيد الضعيف ويقاتل دونه قتال الأم عن صغارها، ويُشذِّب شوكة القوى حتى يرده إنسانًا سليم الفطرة لا يضُرُّ ولا يطغى، فأرسل سيدنا محمدًا ﷺ داعيًا إلى الله، وسَكَبَ في قلبه من الرحمة والشفقة، ما جعله أرحم عباد الله، وأوسعهم عاطفة، وقد لازمته هذه الرحمة فى أصعب الساعات عندما حاول المشركون في غزوة أُحدٍ اغتياله، وألجأوه إلى حفرة ليُكبَّ فيها: ونظرَ إلى زهرة أصحابه فوجدهم مُضَرَّجين بدمائهم على الثرى، ونظرَ إليه بقية أصحابه فإذا خَدُّهُ قد شُقَّ، وسنُّه قد سقطت، وَدَمُهُ الزَّكي قد سال، وفي هذه الغمرة من الآسى والألم قيل له: ادع على المشركين، وحُق له ذلك، فغلبته رحمته، وجعلت نفسه العالية تستميح لأعدائه العذر : فكان دعاؤه: (اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون).[المعجم الكبير للطبراني]

انظر ما في هذا القول من حسن خلقه ﷺ، وغاية رحمته وحلمه، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت على إجرامهم، بل دعا لهم: فقال: (اللهم اغفر)، ثم أظهر الرحمة بقوله: (لقومي)، ثم اعتذر عنهم لجهلهم فقال: (إنهم لا يعلمون).

يا رسول الله ! يا نبي الرحمة ...ماذا يقال في رحمتك في مقام المدح والثناء، بعد أن زكتك السماء ، وقال فيك رب العالمين : (وإنك لعلى خلق عظيم) [القلم:4]، وأىّ كلام يبلغ صفتك، ويجلّى حقيقتك، وقد منحك الرحمن صفتين من صفاته: الرأفة والرحمة، فقال فيك جل شأنه: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [التوبة:128]، فلا مدح ولا ثناء فوق ذلك بعد أن خلع عليك ربُّك حُلَلَ المدح والثناء.

وقد تحدث رسولنا ﷺ عن نعمة الله عليه بأن جَمَّلَه بالرحمة فقال: (إني لم أُبعَثْ لعَّانًا، و إنما بُعِثتُ رحمةً) [صحيح مسلم].

عباد الله: ما أحوجنا ونحن في شهر ميلاد النبي ρ أن نتحدث عن رحمته، هذه الرحمة التي جمَّله الله وجلَّله بها لها خصائص انفرد بها عن العالمين:

أولًا: رحمة ربانية: فمن أسماء الله تبارك وتعالى الرحمن والرحيم، وقد افتتحت سور القرآن ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال الله تعالى عن نفسه: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[الحجر:49]، وقد اتصف وتخلَّق وتحقق سيدنا محمد ﷺ بخلق ربه سبحانه وتعالى، حتى زكاه ربه بها، وأثنى عليه باسمين من أسمائه جلَّ جلاله فقال : (قَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: 128].

ثانيًا: رحمة عالمية: نستفيد ذلك من قول ربنا في حق نبينا ﷺ:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: 107] ، أيّ: أن رحمةَ النبي رحمةٌ عامة للعالمين جميعًا، فرحمته ﷺ شملت كل المخلوقات والموجودات من الإنسان والحيوان والطير والجماد.

فمن ذلك أن ملك الجبال لما استأذنه في إطباق جبلي مكة على الذين كذبوه وشتموه وآذوه؛ فكانت رحمته بهم أن قال للمَلَك: «لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا» [البخاري]

ولما هَاجَ جملٌ لأحد الأنصار ودخل عليه الرسول ﷺ أقبل إليه الجمل وحنّ وذرفت عيناه، فمسح النبي ﷺ ذِفراه (خلف أذنيه) فسكن، ثم نادى صاحب الجمل وقال: (أفلا تتَّقي اللَّهَ في هذِهِ البَهيمةِ الَّتي ملَّكَكَ اللَّهُ إيَّاها؟ فإنَّهُ شَكا إليَّ أنَّكَ تُجيعُهُ وتُدئبُهُ). [سنن أبي داود]

ثالثًا: رحمة عبقرية: لقد كانت رحمة النبي ﷺ أَحَدَ أهم عوامل نجاح دعوته، والتفاف الناس حوله، وجعل منها شباك رحمة لصيد القلوب، واتخذ رحمته وسيلة لفتح القلوب السوداء، وتحريك المشاعر الصماء، قال الله تعالى له: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) [آل عمران 159] يعني : لولا رحمتك يا محمد لانفضوا من حولك رافضين دعوتك، ولا يعني هذا أنه كان يتصنع الرحمة، بل كانت سمته الطبيعي وفطرته التي جبله الله عليها ، وهكذا كانت الرحمة في يد رسول الله ﷺ مفتاحًا سحريًّا، فتح مغاليق أقفال صدئة لم يكن أحد يتوقع فتحها بأي مفتاح، وأشعل شعلة الإيمان في القلوب بعبقرية رحمته، واقتداؤنا برحمته ﷺ هو قوتنا الناعمة لفتح قلوب الناس للإسلام في كل زمان ومكان.

رابعًا: رحمة وسطية: ومن خصائص رحمة النبي أيضا أنها رحمة متزنة وعادلة، فهو رحيم دون ضعف، متواضع بغير ذلة، محارب لا يغدر، سياسي لا يكذب، يستخدم الحيلة في الحرب ولكن لا ينقض العهود والمواثيق، يجمع بين التوكل والتدبير، وبين العبادة والعمل، وهذا هو الحال في أخلاق محمد ﷺ جميعها، فهي تعمل ضمن منظومة متناسقة متناغمة، تتشابك جميعها لتأدية أغراضها، فلا تتوسع صفة أو تقوى على حساب أخرى، ولا تعمل إحداها ضد الصفة التي تقابلها.

ففي فتح مكة يوم أن دخلها رسول الله منصورًا بعد أن كان أخرج منها مطاردًا، وقف عند الكعبة والمشركون حولها ينتظرون لحظة الفصل والقضاء، فقال لهم أرحم خلق الله(يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ :اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ) [سيرة ابن هشام].

اللهم خلّقنا بالأخلاق المحمدية الشريفة ظاهرًا وباطنًا، اللهم اجعلنا من أهل الرحمة والمغفرة، ومن المقبولين عندك، ومن الذين إذا دعوك أجبتهم، وإذا استغفروك غفرت لهم.

كتبها فضيلة الشيخ: محمد محمد إسماعيل محمد ملكه مبعوث وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل.